سمات القيادة عند محمد الرشيد

بقلم د. أحمد بن زيد الدعجاني

بحكم عملي سكرتيراً لمعالي الأستاذ الدكتور محمد بن أحمد الرشيد مدة عمله وزيراً للتربية والتعليم فقد طاب لي أن أتحدث بما أعرفه عن أسلوب عمله وقيادته والجهود الجبارة والمتواصلة التي بذلها معاليه خلال مدة عمله وزيراً للتربية والتعليم، حيث أن الأمانة تقتضي أن أنقل وأنشر ما عايشته مدة تشرفي بالعمل تحت إدارته وملازمته علَّ أن تجد فيه الأجيال القادمة وحتى الحاضرة أنموذج عمل ناجح إدارياً وتربوياً يحتذى.

فأتحدث في البداية عن وقت كان الناس فيه لا يعرفون من أعمال الهبة والوقف إلا بناء المساجد وخلافها ولم يكن حسب ما أعرف عندما جاء معاليه للوزارة في ١٤١٦/٣/٦هـ، أن هناك مدارس بنيت من تلك الأموال فسن سنة حميدة حيث دعا الميسورين، ورجال الأعمال إلى التبرع ببناء مجمعات تعليمية راقية جداً في أماكن متفرقة سميت بأسمائهم تخليداً لذكراهم، وسعى إلى الحصول على موافقة الجهات المعنية للبدء في توسعة هذه الأعمال ووضع ضوابط تحكمها.

ثم انطلق في توجهه، لا يترك مناسبة إلا وأفاد منها في توضيح مشروعه الذي يصب في مصلحة الوطن وأهله، وكان كما قيل: (على قدر أهل العزم تأتي العزائم)، فهو ذو عزيمة لا تكل ولا تمل، يبث العزيمة والحماس في العاملين معه.

وأنقل هنا للأمانة أحد الأحداث التي عايشتها عن قرب ومثلها كثير، فعندما بدأت بوادر توجه الشيخ سعد بن محمد المعجل وابني أخيه للتبرع بمشروع تعليمي

سكرتير وزير التربية والتعليم الأسبق.

فـي بلدهم حوطـة سدير... كان لي شرف نقل هذا التوجه، فما كان منه وهو صاحب المبـادرة والهمـة العالية، وسرعة العمـل، إلا أن سطَّـر كتاباً أثنى فيـه على الفكرة وإن لـم تصل إلـى مرحلة اتخاذ القـرار، وكلف مدير عام التربيـة والتعليم بمنطقة الرياضـ، وكاتب هذه المقالة لنقل الرسالة شخصياً مع أرق الاعتذارات لعدم تمكنه مـن أن يقدم الشكـر بنفسه، وبحمد الله كانت توقعات معاليه في محلها حين خاطب مشاعـر، ونبـل أخلاق الشيخ المعجـل، فقد ارتفعت كلفة المشـروع من ستة ملايين إلـى ثلاثة عشـر مليون ريال، وها هو مجمـع المعجل التعليمي فـي حوطة سدير يقع على مساحـة تجاوزت عشرين ألف متر مربع ينعم به أبناء المنطقة تعليمياً وثقافياً، ورياضياً والشواهد مثله كثيرة.

إن مـا قام به معالي الأستاذ الدكتور محمـد الأحمد الرشيد من إنجاز في وزارة التربيـة والتعليم وما كان يحظى به من سمات قيادية تحتاج بالفعل أن تخضع للبحث العلمـي ليفاد منهـا وليس أقل من دراسة لتحليل مضمـون أساليبه الإدارية المتميزة ونهجه التربوي، ونظريته الإنسانية. فهو لا يعمل في الخفاء وسريرته كعلانيته، وحاله وصفه الشاعر بقوله:

فسري كإعلاني وتلك خليقتي وظلمة ليلي مثل ضوء نهاري

يحضرنـي مما قالـه عنه الكاتب أحمـد العمر في إحدى الصحـف بما نصُّهُ في وصف شخصيته التربوية والقيادية: «أول ما يطالعك ومقابلته للناس أول ما يطالعك فـي هذا الرجـل أنه إنسان بكل ما فـي الكلمة من معان ينبع سلوكـه كله من إنسانية عميقـة الغـور، تطبع أكثـر تصرفاتـه، وتصبغها بصبغتهـا، فهو كثيـر التبسم وفي الحديث الشريف: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**».

والحقيقـة التي لا مراء فيها أنه متواضـع للناس صغيرهم وكبيرهم ولا يشعرهم أنه وزير يحترمهم «دون تكلّف»، وقد رأيته يخاطب أصغر موظف عنده وكأنه يخاطب زميـلاً له، نـداً مُكافئاً وهذا الاحترام لهم يصاحبه الاهتمام بهم، فتراه - على كثرة

أعبائـه - حسن الاحتفـاء بهم، يسألهم عـن أحوالهم الخاصة وأمورهـم. والدكتور الرشيد مضرب مثل في كونه مؤمناً بعمله، مخلصاً له، يجد فيه المتعة، فهو لا يحمل نفسـه علـى ما تكره، لذا فهـي تنشط له فيما يحب وتجده في حركـة دائبة نشيطة لا تعـرف الكلـل، ولا تحب إلا المثمر مـن العمل، وهو أينمـا حل: عميـداً، أو مديراً، أو وزيراً، حوَّل ما حوله إلى خلية نحل عاملة بشكل عجيب وصدق فيه قول القائل:

متوقد منه الزمان وربما كان الزمان بآخرين بليدا

وحرصه على دوامه في العمل - في مراحل حياته العملية كلها - أمر عرف عنه، فهو من أول الناس حضوراً لعمله في الصباح وآخرهم انصرافاً منه، لذا يتعب ويتعب مـن معه، فإذا سافـر في مهمة تضاعف شكـوى المرافقين من مواصلـة العمل دون استراحة للأجسام، أما الراحة النفسية فهي متحققة على الدوام، هذا يذكرنا بقول الشاعر:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وهـو فـي أغلب أحوالـه - هاش باشـ، يغدق الثنـاء الصادق على مـن حوله، أو مـن يلقى، وهو لين القول، حـار الترحيب، يخاطب الناس بالحـب، والمودة، والقلب المنفتـح، وقد رأيته محيـياً، وسمعته متكلماً بالهاتف، فملـك إعجابي ذلك الأسلوب الرائـع مـن الترحيب والتحية والسـلام، الذي تشعرك حرارته وصدقـه بجو الأسرة الحميم، والصداقة الصافية التي ندرت هذه الأيام.

ومن صـدق إنسانيته، وعلو نفسه، مقابلته الإسـاءة بالصفح، بل بالإحسان فإذا أسـاء أحـد إليه بقول في اجتماع عام أو خاص، أو بمقـال في صحيفة أو مجلة، يغمز فيـه ويلمز، بسوء أدب في بعض الأحيان، لم يغضب لنفسه، وترك الرد عليه. وبدهي أن عفوه هذا هو عفو القادر لا عفو العاجز، فالرد سهل عليه يسير، فهو الوزير، يطاع أمره، وتُلبى رغبته.

ولقـد رأيته في بعض الأحيان غضبان منفعـلاً لمصلحة العمـل أو تأخر إنجاز، لكنـه الغضب الذي يملك معه نفسه، وهـو أسرع مروراً من سحابة الصيف، إذا طال لـم يزد على بضع دقائق، ثم تعود سماؤه صحواً، وربيع روحه نفاحاً بالشذى، نضاحاً بالطيوب. انتهى حديث الكاتب أحمد العمر.

ومحمـد الرشيد الذي يُحَب ويُحِب أن ينادى بأبي أحمد، كانت لديه قدرة عجيبة علـى توليد الأفـكار المتنوعة التي ليست من النوع المتوقـع، ويستطيع توجيه وتحويل مسار التفكير نحو مواطن الإبداع.

إذ كان ممـدوح السيـرة، عالي الصيـت، مقدرً لكبار أهل العلـم الذين هم عنده فـي محل العز، واثقـاً في نفسه ومشروعـه واضحاً ورؤيته أوضـح يحفظ الوطن عن ظهر قلـب تاريخياً وجغرافيـاً واجتماعيـاً، ويستظهر روائعه ويعتز بقيمـه وأمجاده، وتـذوب مصلحته الذاتية في مصلحة الجماعة، وهو الذي قال وفعَّل مقولاته الرائعة: (العمل بـروح الفريق) و(حدودكم السماء) في إشارة للتفويض المتزن، ولم ينقسم العاملون معه بل كانوا متفقين، ومنه تعلمت أرقى وأنقى وأبقى أساليب الإدارة، وأنعم الله عليـه بشخصية كارزمية فيها حكمة لـم تبنها له الظروف، بل البناء الشخصي، كانت فـي شخصيته من المزايا والسجايا ما يوضح الأنموذج الأمثل للعمل وما يسوغ جهـوده الجبارة التي آلت إلى النجاح بفضـل الله سبحانه وتعالى وتوفيقه، ثم بفضل دعـم وتقدير ولاة الأمر حفظهـم الله، وكان ذو نظرة ثاقبة، ومروءة راسخة، ووطنية متجـذرة، ووفاء وعطاء، وحب متنـاهٍ، فها هو يستقبل محبيه الذين زادوا وما نقصوا (بعـد تـرك الوزارة) فـي (سبتيتـه) الشهيرة التـي افتتحت منذ سنـوات وما زالت منتدىً تطرح فيه الأفكار النيرة. هذا ما يكنه الضمير من الإخلاص، والتقدير لرجل مـن رجالات الوطن الأفذاذ، أكثر الله من أمثالـه، ودام عز الوطن بقيادته الرشيدة حفظها الله.